

ما تبقى لكم .. وسط ايد انسان المعذب

بقلم عبد الرحمن علي

عالمهم مختلط لا يمكن التعرف عليه للمباهمة الاولى ..
ثمة علاقة واضحة في مستوى الشكل العام تستطيع ان
ترسم خطوطها العريضة على النحو التالي: يموت ابو حامد
اساء القدر بمدينة يافا العزبية .. حامد واخته مريم
يعيشان تحت سيف الجلاد اليهودي في غزة .. زكريا
صديق حامد يتعرف على مريم ثم يدخل معها في علاقة
مربية .. تنتهي بالزواج .. حامد يحمل عاره ويفادر
غزة للحاق بامه التي غادرت الى الاردن منذ امد بعيد ..
هذا هو السطح الذي يخفي في اعماقه دلالات ورموزا
كثيرة تجعل من هذه المادة الهينة صورة حية للعمارة الفنية
التي تتداخل فيها الرؤى وتمتد وتضيق المسافات فتكسر
من حدة الزمان والمكان .. الرواية نسق جديد ومحاولة
لهضم المضمون وفق انسيابات المنلوع الداخلي حتى تتعري
الاشياء من ازيائها وتأخذ طابع التباين الممزق للتشكيلات
الخارجية .

وفجأة جاءت الصحراء .. بهذه العبارة تفتح كوى
المغامرة المشروطة بالكره والحب .. يقف حامد بعيدا عن
غزة مثل كرة من خيوط الصوف مربوط اولها الى بيته
في غزة ، طوال ستة عشر عاما لفوا فوقه خيطان الصوف
حتى تحول الى كرة وهو الان يفكها تاركا نفسه يتدحرج
في الليل . هذا التدحرج لا يعني الا ان الانسان مدفوع
برغمه ان يحيا المأساة من غير ان يفقد كرامة النبعة !
« حامد يقول اشياء كثيرة اتركه » هكذا قاه زكريا المرغ
بالتنن .. من خلال هذه الذبذبات النفسية تتجسد امارات
الالفة بين المحسوسات والمعقولات وتتصادى مع الساعة
التي تدق تدق ، والساعة هنا - كما ارى - رمز للرب
الذي يقرر لحظة الحتم .. ولا يغير من طبيعة هذا الحتم
التاريخي ان شيئا ما يفوت على الانسان الفرصة ويتلذذ
بكرامة الزمن .. هناك حدان لقضية باتت رهيبه ، لموقفين
متناقضين في نغمة الوجود: زكريا الخائن المهساون
لا يرعوي عن الاذعان لمشيئة الدخيل فيخبره عن سالم
المناضل الايجابي ، وحامد بعفاهه البنوي يكره ان يتمثل
مأساته بلا مذاق ، يريد ان يكون ايجابيا ويسعى للتخطي
كما تنادي به من بعيد « لو كانت امي هنا ، لو كانت امي
هنا » دلالة الام هذه تتم عملية الايصال الحاني التعيس ..
الام هنا تدب لحنان الارض بعد طول فقدان .. « لقد
كانت امك بالنسبة لك دائما فارسا غائبا على استعداد
ليشرع سيفه في وجه أي عقبة تقف امامك وعشت كل

منذ أصدر الاستاذ غسان كنفاني روايته « رجال
في الشمس » ، وهو يجد باحثا عن ايقاع جديد يتخطى
عن طريقه كل ما يغفل الرواية العربية من جمود ورتابة
واجترار .. وكان لصدور هذه الرواية رنة خاصة في
نفوس الناقدين ، لانها مظهر من مظاهر البحث الدائب عن
شكل فني يتناسب عمقا واتساعا مع الاهتزازات التي
تقدح في ضلوع مجتمعا العربي الذي طال عذابه وأساه ..
واليوم يعود الروائي العربي غسان ليواصل عمله البنائي
والفني في روايته الجديدة « ما تبقى لكم » .. واذا كان
كبار الفنانين بوجه خاص اكثر عافية من عامة الناس واوفر
حكمة منهم واعمق انسجاما كما يقول الناقد الكسندر
اليوت ، فان من المحقق ان مؤلف هذه الرواية لم يقتصد
في بدل هذا النسيج التعبيري المشحون بالصدق والنظرة
المتحفزة المضيئة .. وقبل الدخول في عالم الرواية نشير
الى وضع ادبي يكاد لتكراره يطعن في جدية التأليف واتزان
الرؤية ، انه شيء يتعلق بصميم مشكلاتنا المصيرية التي
نستطيع دائما ان نوليها صراخا وهتافا ، لكننا ، لازمة
آخذة برفقنا ، لا نتمكن ان ننظم علاقاتنا التعبيرية على
اساس من التوازن بين الكألمات في سوية منطقية وقتية
تنظم علاقاتنا التعبيرية على اساس من التوازن بين الكلمات
في سوية منطقية وقتية هادئة بلا جهازة مقرقة .. فذلك
دليل على اننا ندرك امورنا الفنية كما لو كانت امتدادا
لتعليقات الصحافة السياسية ، ومن هنا تجب الاشارة
الى هذا الوضع المحزن الذي يلف اعمالنا التأليفية سواء
في القصة او الرواية او الشعر .. على ان ذلك لا يصرفنا
عن النظر الى اعمال جادة تشف عن مجهودات حقيقية لانها
كشفت جديد عن عالم ساحر ما زلنا نتوق الى فض مغاليقه
وكسر حدوده ..

يقف غسان في هذه الرواية عند منحدر الازمة ولكنه
لا يعفي نفسه من الولوج الى مسافات يشتم منها انفاص
« طنطالوس » المعذب الذي حكم عليه الاله جوبيتر بان
يكون على مقربة من الطعام من غير ان يستطيع تناوله ،
فكأنه يتلقى من الاله اكثر مما كان يطيق ان يهضم ..
الشريحة الحياتية من صميم مأساتنا ، من عارنا المصلوب
في ارض النبوة حيث تجري العلاقات بين الناس على
غير نظام .. ابطال خمسة ، حامد ومريم وزكريا والساعة
والصحراء ، لا يتحركون في خطوط متوازية او متعاكسة
ولكن في خطوط متقاطعة ملتحمة احيانا .. معنى ذلك ان

غمرك متكئا عليها .. » . ان هذا التحريم يعبر عن التشبث المجروح ، فالأخت مريم تفتقد الحاجز وتصبح ممرا لعبور .. معنى الفروسية يصطبغ بلهجة حاره ويرسم ملحمة العار المخضب بالدهشة .. هنا كذلك نفي للتأسيات الروائية الأنيقة .. انه رفض للتسطيح وتكثيف للحتمي النفسي بحيث تختلط الأزمنة على شكل انتقالات اصعب من ان نمارس في حدود العبارات المطوطة .. فالشخصية والموقف متلازمان ومتصارعان في آن .. والصوت يأخذ نصيبا في رسم الإيقاعات النفسية حتى يصعب التمييز بين ما يقوله زكريا وحامد ومريم .. والوحش يفترس بدوات الإفصاح ولا يبقى من غزواته الا صدع الروح والحضارة ..

هذا التكثيف الملحمي قد يبعد عن الرواية الجزئيات التي لا تغني ولكنه يعطي العمل الروائي شيئا من رواء الاطلاقات الخارجية احيانا ومن غير مبالغة .. ان الرواية الناجحة قسمة بين المضمون المترقق والتكثيف الشعري، والتجريد في العبارة مع النزف الخفي في المقاطع يعطي الرواية نسيجا حارا تغنيه إيقاعات وثابة تستقطب مسارها من وهج الصوت والحركة النفسية المعبرة ..

في العبارة التالية تلمح المظاهر الخارجية التي تغلف الموقف . « ومن بعيد صفرت ريح صغيرة ومضت تكنس الرمل قادمة كأنما في سباف نحوبا ، وحين وصلتنا غسلتنا بموجة مبكرة من الفيظ » . غير ان الحركة الداخلية للشخصية تزحم التوترات الخارجية فيبدو الصوت النفسي وكأنه عالق بحلولية الموقف . لذلك تتفجر الازمات المتوارية من بين علاقة حامد بعدوه اليهودي الذي يريد ان يكسف امره اناء عبوره الحدود .. ويتهدى صوت اخر يتضمن العلاقة الجدلية بين مريم وزكريا .. حامد ومريم يريدان التخطي واملأء المواقف بصرخة النفس التي لم تسأ ان تتمرغ في الوحل .

« وعندها فقط نظر الى عيني . ولمحت من جديد تلك المسحة الخرساء من الرعب العاجز فأدرت انه سيكون بوسعي ذات لحظة ان أجز عنقه داون رجفة واحدة ، وان هذه اللحظة ستأتي لا محالة تحت وقع البريق المرعوب في عينيه » (حامد) .

« ولمعت امامي بنصلها الطويل المتوقد ، فوق الطاولة ، فردني الجدار اليها كأنني لعبة مطاط واحتوتها قبضتاي معا وانسدل ذراعاي فوق كفي المطبقتين على مقبضها حتى اسفل بطني متشنجتين قاسيتين ، واندفعتا مرة واحدة ونحن ننظر في عيني بعضنا مباشرة . وكان النصل مندفعاً من بين كفي الحكمتي الاغلاق وأحسست به حين ارتطمنا يفوص فيه » (مريم) ..

فيصل الامور يند عن ايجابية قاطعة تفقد ملامسها الاولى عندما يلوح ان الحقد اقوى من ان يخضع لصوت

المساومة .. وحين نتتبع المنابع الاولى لهذا النمو المصيري الصاعد لا يصعب علينا التعرف على البصمات التي صنعت من حامد انسانا اخر .. ان الميلاد الكامل للبطل المعذب هو من جنس التراب الحزين .. ان البطولة علاقه متشابكة وشرطها التاريخي موصول بمراره النفس واطراد المقامرة .. ولم يعذب للاسنان الفتى المعامر ان يكون قادرا سيدا من ان يدون رصيف الفاع المدال ..!

يقول سالم العربي المثلىء صحة نضالية لصديقه حامد وهو فسيي بدء الطريق الساق : ألم تشته يوما ان تطق رصاصة في معركة فافتك دون ان تطلق فيها اية رصاصة ؟ « لقد قتلوا اباك كما اعلم واغلب الظن انك عشت تعتك اسنانك وتتوعد وتقول لو .. حسنا ! » . لم يفقد حامد الحافظ التاريخي .. ولكنه مصاب بالجفاف ، فقد كان لا يشرب الماء الا من الابريق .. فكيف يبيل ريقه ؟! ثمه ذل جديد لا يسمح الا بشهوه العناق مع الشمس .. والعار يتسع شدقا مع نمو فصول الماساه .. يدق يدق كالساعة .. ولكن العغرب الكبير انسل ومضى يتعمد قارعا خطوته المفردة في الفراغ .. ان مريم تريد ان تولد من العار المخضب بالهبر لابها نهب للمجهون تطفلها الذي سيؤكد معنى التحقق اللانهائي « وفجاء اخذ ينفض في احسائي ، وشعرت بحركته الصغيرة تندفق في بدني فقد كانت تلك هي المرة الاولى التي احسبته فيها يتحرك بعيدا في ظلام مجهول ولانهائي » .

ويقول زكريا : اسمعيني وقولي غدا ان زكريا قال ، اذا لم تستطعي اسقاط ذلك الفواد الضغير .. فأنت طالقة » . عند هذه الممانتي تتكسر مغاليق الرموز .. فزكريا مغتصب يريد ان يأتي على البقية الباقية التي يسعى الى سلبها الغاصب .. انها الارض التي تؤذن بالفقد الكامل .. ومن هنا يشفق القارئ على مريم بعد شيء من القطيعة . فمريم تتخطى عارها .. تسخط وتشرع في قتل زكريا .. هذا الرباط المتضاد رفض لا بوة مأكرة تدمغ اصابة الانسان ! ان مريم صياغة وجودية اخرى متولدة من شرط العذاب .. غسان الروائي كما يلوح لنا ، يبني عمارته الفنية من خامات مزرحة بملح الارض .. لا يبالغ في خلق النعوت البطولية المهولة .. انه ينحت اشخاصه من جذر البساطة والعمق فيغدق عليها دماً ساخنا ويكسوها لحما انسانيا فاجعا .. وهو بعد لا يتحمل التبريرات والاعذار المقررة .. وانما يبني عالمه كمثل الحلم الرخي الذي ينقلب الى رعب ممزق عند حالة الصحو ..

هذا الصدور العفوي هو الذي يجعل من روايته الصغيرة « ما تبقى لكم » عملا جادا وارهاسا بميلاد الرواية العربية الممتازة ..

عبد الرحمن علي

البصرة - الجمهورية العراقية